# الخاتمة

وأخيرًا ففى نهاية تلك الجولة الشاقة والشيقة فى آن معًا، أجدنى قد وقفت على جملة نتائج تتعلق بإبداع الرافعى وخصائص أسلوبه بالرباعية. من تلك النتائج:

**١- نتائج إجمالية:**

* إذا كان إيجاد الأصل الروحى والنفسى المشترك لخصائص الأسلوب عند كاتب ما أحد الطموحات الكبرى المعاصرة للمشتغلين بالأدب وشئونه، فإنى أرى أن إبداع الرافعى بعامة، وخاصة بالرباعية، قد قامت دعائمه على عمد ثلاثة هى: إسلامه، عقلانيته، اعتداده بذاته.

أما **إسلامه** فقد شكل المعلم الأساسى لإبداع الرباعية؛ فمفهوم الرافعى للحب عذرى إسلامى، ونظرته للجمال تعنى بالجوهر لا بالشكل، وبالخلق والفضيلة لا بالأصباغ وألوان الزينة.

فقد انطلق الرافعى عن دينه وخلقه فيما كتب بالرباعية بشأن الموضوع، إذ تناول بالرباعية قيمة الجمال وعاطفة الحب، على نحو يلتزم فيه أصول العقيدة، وذلك جنبًا إلى جنب مع عدم التنازل عن طموح إبداعى واضح، فى أن يكون أدبه الوجدانى أدبًا سامى القالب، فيما يتعلق بالشكل وأسلوب الإبداع.

وقد صدر الرافعى فى تعابيره وأسلوبه كثيرًا عن القرآن الكريم والحديث الشريف وأصول الفقه، على نحو يقرر له حسن الهضم لتعابير تلك المتناصات، واهتمامه بها، ويكشف عن تدين حقيقى التزمه الرافعى فى حياته.

أما **عقلانيته** البادية بإبداعه، فقد دفعه إليها أو طورها لديه ذلك الصمم الباكر، الذى دفعه إلى التأمل فى كل شىء مما يقرأ ويسمع ويشاهد، فكان كتابيًّا لا شفاهيًّا، وانعزل عن دنيا الناس، فصار التأمل ومحاولة عقلنة الأمور سمة لازمة من سمات أسلوبه، وهو الأمر الذى يلحق أدب الرباعية بإبداعات الصنعة كمذهب فنى إبداعى. وقد بدت تلك العقلانية واضحة فى التشقيق العقلى وأسلوب بعض نماذج الشعر.

أما **اعتداده بذاته**، فقد بدا أثره ماثلًا فى أن خرج أدب الرافعى أحيانًا وكأنه يكتب للصفوة أو كأنه يكتب لنفسه، أعنى أن إبداع الرباعية ليس ميسور التلقى؛ إذ ينبغى على قارئ أدب الرافعى أن يتصف بالصبر والأناة والتروى فى التلقى.

ويبدو لى أن عقلانية الرافعى واعتداده بذاته كان لهما من الأثر فى إبداعه الإنشائى الباكر (فى حديث القمر ورسائل الأحزان) ما لا يخفى؛ بحيث خرجا أقرب إلى التصنيع كأصحاب الحوليات فى الأدب الجاهلى. غير أن تطورًا لحق حياة الرافعى، وأعنى به الاشتغال بالصحافة، قد طبع أسلوب الرافعى خاصة كتابه الأخير (أوراق الورد) [١] بكثير من السهولة واليسر. ويعد الأوراق بحق أحد الإبداعات المعاصرة النادرة التى كتبت بالعربية، وحق لأهلها أن يتيهوا بها على آداب الأمم الأخرى. إن القارئ للرباعية ليدرك - فى غير ما عناء - الفارق بين عمق (صعوبة) [٢] أسلوب "الحديث" وصنعته وبين جمال أسلوب "الأوراق" ورومانسيته.

والحق أنه ينبغى أن يعذر الرافعى فى صعوبة منحى أسلوبه أحيانًا؛ إذ لم يكن الرجل يدرك الفرق بين الصعب والسهل على نحو دقيق، وخاصة وقد انعزل عن دنيا الناس والتفاعل الشفاهى معهم مبكرًا ذلك من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد تتلمذ على كتب الجاحظ والأصفهانى من جهابذة النثر الفنى بالتراث العربى.

أما ما رمى به أدب الرافعى من غموض، فالحق أنى لم أره معلمًا أسلوبيًّا بارزًا بالرباعية، وإن بدا أسلوب الرافعى - فى بعض الأحيان - فى حاجة إلى وقفة تأن؛ للتعرف على الدلالة المقصودة المتأبية على التكشف سريعًا للقارئ[٣].

والغموض - كما يقول الدكتور/ منير سلطان "من المصطلحات التى اهتم بها النقاد والبلاغيون، والتعقيد شبيه بالولادة العسرة لسبب من الأسباب الطبية أو النفسية، فبدلًا من

(١) ألف الحديث ١٩١٢، الرسائل وكذا السحاب فى ١٩٢٤م، أما الأوراق فقد ألف فى ١٩٣١م.

(٢) خاصة بعين المحلل الدارس.

(٣) يراجع فى تلك المواضع مثلا: الحديث ١٥ العقول العشرة، ١٠٢ فم أصغر من فم الحقيقة. الأوراق ٨٢ رجل وقع بين لا وليت وهيهات ولات. والحق أن قراءة تلك العبارات فى سياقاتها على مهل فى التلقى – يكافئ تمهل المبدع فى إبداعها – يكشف فى أغلب الأحيان عن مراد المبدع منها.

أن يسلك الفنان الطريق المألوف فى التركيب اللغوى، فيؤدى معناه بشكل جميل، يغير فى تركيب الجملة ويقهرها على أداء معنى وهى فى وضع غير طبيعى، فيحتاج المتلقى إلى إعادة جزئيات الجملة إلى وضعها المتفق عليه؛ ليفهم المقصود، وبعد هذا العناء قد لا يخرج بما لا يستحق بذله من جهد. فالتعقيد: التصرف مع الضوابط اللغوية والنحوية المألوفة بشكل غير مألوف.

والغموض نوعان: غموض ممتع، ذلك الذى نراه فى أبيات المشكل التى تحتمل أكثر من معنى .. وغموض آخر مرهق، وهذا الذى يدفع بالمتلقى إلى الغوص وراء المعنى، أو محاولة إكماله، أو إتمامه لينتصب أمام عينيه شيئًا له قيمة" (١).

والبائن أن الرافعى بعيد عن الغموض، على الأقل من الوجهة التى ترى الغموض معلمًا أساسيًّا فى إبداعه على نحو ما ذهب إليه الدكتور طه حسين، والدكتورة نعمات أحمد فؤاد .. كل ما هنالك أن الرافعى قد طبع أسلوبه شيء من التأمل، الناتج عن عقلانيته، وأنه كان يرى فى أسلوبه الخاص تحديًا لأولئك الذين يعيون بقراءته ويجهدون أثناء مطالعته. وقد تهيأ للرافعى إلى جانب تلك القوة العقلية قوة عاطفية، نشأت عن تجربته المعيشة: حبا وغراما، فكان أن أبت نفسه الحوك على درب الآخرين ... ومن ثم نهج أسلوبًا مخالفًا لنهج الآخرين. وكما يقول ليو شبتسر: "كل من فكر بقوة وشعر بقوة قد جدد فى لغته، فالإبداع العقلى ينطبع من ساعته على اللغة، حيث يصبح إبداعًا لغويًّا، والمستهلك والمتحجر من اللغة لا يفى أبدًا بحاجات التعبير لدى شخصية قوية" (٢).

وإنى لأرى – انطلاقًا من كون عباقرة المبدعين لا يفهمون ولا يقدرون فى أزمانهم – أن القول بجزالة أسلوب الرافعى وتراثيته (أصالته)، هو ما ينبغى أن يستبدل بالغموض والتعقيد(٣)، وفى كلمة هيجل الصادقة: "الرجل العظيم يجشم الدنيا مشقة فهمه"(٤)، ما يدل على عظمة الرافعى شخصًا وإبداعًا.

---

(١) بديع التراكيب فى شعر أبى تمام ٤٤٣.

(٢) اتجاهات البحث الأسلوبى ٦٥.

(٣) راجع فى تلك الجزالة لا الغموض تعابير الرافعى بالسحاب الأحمر مثلا: توكفت هذا السحاب، تحدر الدمع ١٨، الناس منقصون عليه ٤٦ تنكف دمعها، برمة ٥١، نزت كبدى ٥٨، مزعة بعد مزعة ١١٦ قبيحة سفعاء ١١٦ ... إلخ.

(٤) بين الفلسفة والأدب ٥.

وإذا كان الغموض ينطلق غالبًا إما عن التركيب أو الصورة الشعرية أو الألفاظ (الوحدات) المختارة، فمما سبق يتقرر أن الرافعى مبدع، لم يشأ لأدبه التكشف والتسطيح، بل أراد له الخلود من طريق الأصالة وعمق البناء.

وإنى أشعر فى رمى الرافعى وأسلوبه بالغموض والتعقيد سوء نية، اتسم بها البعض؛ إذ يعمد هؤلاء إلى هدم إبداع الرافعى من خلال أعظم ما امتاز به من عمق فكرة، وخصوبة خيال. وفى قول الدكتور رجب البيومى مقنع لمن أخلص للأدب وأهله، يقول عن أسلوب الرافعى: "طلع الرافعى على قراء العربية بأسلوب هو صاحبه الفرد لا فى القديم ولا فى الحديث شبيه له أو نديد، كان الرافعى فحل الفكرة عميقها، فهو يتئد كل الاتئاد فى تكوينها على وجهها الدقيق؛ حتى تظهر عميقة الغور فسيحة المحيط، وهو واسع التصوير بديعه، لا يكتفى بالخيال القريب بل يعلو به الجناح إلى أرفع مدى بلغه كاتب فى اللغة العربية، فيفاجئك بما لا يخطر على بالك من رائع التصوير وبديع الرسوم، هو ذو تعبير صلب متماسك، تحاول أن تجد فيه ثغرة واهنة تخلل قوته الآسرة، فلا تكاد تجد" (١).

* تنقسم الرباعية من حيث القالب على قسمين: نثرى غالب وشعرى قليل.

أما نثر الرافعى فبديع بديع، وأما شعره فكثيره رائق وقليله مصنوع. وحسنًا فعل الرافعى أن تحول عن قرض الشعر إلى الإنشاء والنثر؛ إذ تزاحم الشعراء الأفذاذ بعصره وكثروا على نحو لما يرق إليهم دائمًا فى إبداعه الشعرى. وقد بذ الكثيرين من كتاب عصره، ولعله أميزهم أصالة وعمقًا.

نعم امتلك الرافعى أدوات الشعر، لكنها لم تطاوعه دائمًا. أما أدوات الإنشاء، فقد طاوعته، وسلس له قيادها، وأتته طائعة مختارة لا مكرهة متكلفة. إن نثر الرباعية أرقى إبداعيًّا من شعرها إجمالًا؛ فالرافعى خلق أديبًا بالمقام الأول لا شاعرًا.

## ٢- نتائج تفصيلية:

* ترجح فهم الرافعى لمقومات وإمكانات الوحدات اللغوية (المعجمية) والصيغ الصرفية العربية؛ ومن ثم استثماره الإبداعى لتلك المقومات على نحو جمالى، يبدو ذلك

(١) محمد رجب البيومى: محمد صادق عنبر "أديب رائد" ضمن مقالات مجلة الثقافة، العدد ٦٥، فبراير ١٩٧٩م، ص ١٣.

واضحًا جليًّا فى استخدام الرافعى للاسم والفعل (مشتقًّا وجامدًا)، والضمير بثلاثيته (شخصى، إشارة، موصول)، وكذا تقرر حسن توظيف الرافعى لأدوات الاستفتاح فى مواقف الانفعال والتوجيه.

* بدا أن الرافعى انطلق فى بناء تراكيبه عن أربعة قوالب تركيبية إبداعية، هى:

١- التقديم والتأخير، بتعدد مظاهره، وتنوع مجالاته، وعمق آثاره صوتيًّا ودلاليًّا، ولقد أدى التقديم والتأخير بالرباعية إلى إحدى غايتين متكاملتين لا تتفارقان:

الأولى: إيقاعية، تقصد إلى التوصل للمقطع، أو إحداث توازن بالبيت، أو اجتناب الثقل، أو تدفق الإيقاع.

الثانية: دلالية، تسعى إلى التخصيص، أو تشويق المتلقى، أو إبراز المقدم، أو بيان مدى الاهتمام به. ولقد أشار التقديم والتأخير أحيانًا إلى بعض سمات الرافعى الشخصية الخاصة؛ كالدقة والتروى فى القول ومنطقية التعبير.

٢- الاعتراض: ويتكون كثيرًا بالجار والمجرور، أكثر عناصر التركيب قلقًا فى المنزلة، وأكثرها يسرًا فى التحريك عن الموقع. ولقد أدى الاعتراض للتركيب أحد أمرين:

الأول: استقامة الإيقاع، والتوصل للمقطع مع جماليات صوتية أخرى.

الثانى: تعزيز الدلالة، وإضافة معان أخرى حافة بالمعنى الرئيس.

ويكشف الاعتراض بكثافته الواردة بالرباعية عن ازدحام المعانى بذهن الرافعى؛ ومن ثم خصوبة خياله وعقلانيته، تلكما الخصوبة والعقلانية اللتان وسمتا تراكيب الرباعية بالدقة والأناقة؛ مما صير للرافعى أسلوبه الخاص.

٣- الحذف، ويمثل الفراغ الطباعى أرقى مستوياته، ويخلص أثره للدلالة، ودعم الوظيفة التأثيرية للإبداع؛ إذ به يتنبه المتلقى إلى ما أراد المبدع مما لم يقله.

٤- الزيادة، وتعرى مواضعها عن القدح أو العيب، فالزيادة بالرباعية أقرب لأن تكون إضافة شعرية لا زيادة مجردة.

* تبين أن الأساليب الإنشائية إحدى أهم خصائص أسلوب الرافعى بالرباعية:

أ– فالنداء كثيرًا ما كان للحبيبة أو القمر، ويأتى النداء متتابعًا متناصرًا كثيرًا، ويكون ذلك بأول المقطع وخاتمته، وأول النص وخاتمته، وبالحشو، ويكون ذلك بلحظات طرب المبدع. ويأتى النداء كذلك مفردًا متفرقًا، ويكون ذلك بلحظات انفعال النفس، وتأثر الذات، وتنامى الشعور الداخلى للمبدع.

ب– الاستفهام، وقد بدا تميز الرافعى فى هذا الأسلوب بنمطى:

١– استفهام الحكاية.

٢– استفهام الحوار.

وقد اتكأ الرافعى على الهمزة وهل كثيرًا من دون الأدوات، ولذلك علاقة بمقصد الاستفهام الأساسى بالرباعية (التقرير)، وعلاقة بشخص الرافعى المعتد بذاته، والرافض لمحاول تمرد المتلقى على رؤيته الخاص.

وقد تموقع الاستفهام بمواضع الإطار بالاستهلال والختام جزئيًّا وكليًّا. وتبدو نزعة الرافعى غالية فى التوجه إلى تناصر الاستفهام وتتابعه بحشو النص وخاتمته، وإذ ذاك يكشف توحد الأداة عن استغراق المبدع بالموقف، ويكشف تنوعها عن حيرته البالغة؛ بحثًا عن حل ناجع للأزمة.

وقد خلص الاستفهام بالرباعية إلى أحد أربعة معان رئيسة، هى:

التقرير أو التعجب أو الخبرة أو الحسرة والتألم، أما أولها فذو ارتباط بطابع المبدع وشخصه القوى ... وأما ثلاثتها الأخرى فلها بطابع موضوع الرباعية العام (الحب والجمال)، وحقيقة التجربة المعيشة، صلة ونسب.

ج– الأمر: ويدعم عملية التواصل الإبداعى بين المبدع والمتلقى، وأعلى صيغ الأمر ترددًا بالرباعية صيغة الفعل (افعل)، وأدناها المصدر النائب عن فعل الأمر. وقد وجه الرافعى – فى الغالب – أمره ونهيه للمفرد من حيث العدد، وللمذكر من حيث النوع. ولقد استأثر الحشو بغالب صيغ الأمر وأفعال النهى.

وقد بدا تأثر الرافعى بأسلوب القرآن فى استخدام الأمر واضحًا، من خلال:

١– مصاحبته للشرط كثيرًا؛ تأسيسا للإجراء، وتمهيدًا لقول الأمر.

٢- موافقته للنداء كثيرًا؛ تحديدًا للمأمور والمنهى، وإمعانًا فى دقة الدلالة.

أما دلالات الأمر ومعانيه، فقد استجابت لسرعة الرافعى الإصلاحية، فخلصت غالبًا للنصح والإرشاد أو الالتماس والدعاء أو الدعوة إلى التأمل والاعتبار.

* يكشف التناص برباعية الرافعى عن حقائق ويدعم أخرى؛ أما ما يكشفه:

أ- فإن الرافعى قد نوع من مصادر تلك التعابير تنوعًا يقرر حظ الرافعى من ثقافة التراث وثقافة العصر، بحيث اتفقت للرباعية إلى جوار التراث مسحة حداثة.

ب- أن الرافعى يحسن توظيف القبس "المتناص" بنائيًّا (على مستوى بنية النص اللغوية بالتصرف اليسير)، ودلاليًّا (من خلال اتساقه مع سياق النص الضام، وعدم القصد إلى المتناص لذاته، بل إلى الدلالة فى المقام الأول)، أما ما يدعمه التناص فإن ثقافة الرافعى إسلامية خالصة عربية صافية.

* ينطلق تميز الحكمة الرافعية فى بعض جوانبه من معاصرتها، وتعبيرها عن قضايا عصر المبدع نفسه، فتمحورت حكمه عبر شطرين كبيرين، هما:

- الأخلاق الإنسانية بعامة والإسلامية بخاصة.
- القيم العصرية.

* يعد التكرار إحدى خصائص أسلوب الرافعى المهمة بالرباعية؛ تأسيسًا على كثافة تردده، وتنوع مظاهره، وعمق دلالته ومقاصده. وقد بدا أن كثافة التكرار قد انطلقت عن قيم نفسية رافعية خاصة، أو خصال شخصية، تمكنت من نفسه، وأسهمت فى تشكيل ملامح ذاته. من ذلك:

١- نزعة الرافعى إلى التأمل فى الوجود؛ إذ يدفع ذلك المرء إلى معاودة النظر، ومن ثم تكرير بعض عناصر القول.

٢- كتابية الرافعى لا شفاهيته؛ إذ يعمد الإبداع الكتابى لا الشفاهى إلى التنسيق والتدقيق فى مواضع الألفاظ .. ولذلك بالتكرار جد وثاق.

٣- عقلانية الرافعى ودقته، وقد بدا أثر ذلك واضحًا فى التشقيق العقلى وهندسة بناء اللفظ.

* المقابلة ظاهرة أسلوبية بارزة جدًّا بالرباعية. وهى بنوعيها اللغوى والسياقى تكشف عن قدرة إبداعية، لم تخضع لضغط المعجم دائمًا، بل استطاعت - فى أحيان كثيرة - الانعتاق من أسره، وابتكار مقابلات سياقية طريفة. وتعد المقابلة الإسنادية إحدى نقاط التأكيد الكبرى، الدالة على مهارة الرافعى فى إبداع المقابلة على نحو شعرى واضح.

ولئن بدت المقابلة السياقية والإسنادية أهم مظاهر قدرة الرافعى النوعية فى إبداع المقابلة، فإن المقابلة المزدوجة وتناصر المقابلة، أهم مظاهر قدرة الرافعى الكمية، وقد أتت هاتان المقابلتان فى غير ما تكلف ولا استكراه، بل فى طواعية استخدام وحسن توظيف إبداعى.

* تعد الصورة والخيال لدى الرافعى بالرباعية خاصة، أهم خصائص أسلوبه على الإطلاق. وقد تعددت قوالب الصورة بالرباعية عبر التكرار والمقابلة والتعبير الحقيقى والتشبيه والاستعارة والكناية. وقد جاءت صورة الرافعى ممتدة ثرية غنية منطقية، بعيدة عن التكلف، بقدر ما هى متسمة بالعمق والثراء.

وفى وضوح الصورة بأنماطها المتعددة ما يدفع فرية الغموض عن الرافعى. وتعد الاستعارة والتشبيه قالبى الصورة المفضلين لدى الرافعى بالرباعية. أما التشبيه فلتراثية لغة الرافعى وكتابيته أثر فى تفضيله، وأما الاستعارة فلعقلانية شخصة ورومانسية تجربته أكبر الأثر فى إيثارها عما سواها من القوالب.

* ظل الرافعى يكتب شعرًا حتى بعد أن تحول عن الشعر إلى النثر؛ فنثره يتصف بخصوصية الخيال، وتمثل الإيقاع به على نحو قوى.

أما إيقاع شعر الرباعية ففى شقه المعيارى (البحور والقوافى) يكشف عن مقدرة إبداعية، وإن لم يقرر بالقدر نفسه موهبة فنية واضحة.

أما إيقاع النثر من خلال محورية الكبيرين:

١) المقومات الداعمة.

٢) الركائــز الكبرى.

فيكاد المرء معهما يشعر أثناء مطالعة النثر أنه يسمع شعرًا، أو يقرأ لأحد فحول كتاب العربية كالجاحظ والأصفهانى أستاذيه المفضلين.

وبعد .. فإن أدب الرافعى يعوزه كثير من الدراسات الجادة؛ كى يتسنى الكشف عن خصائص أسلوبه المائزة. وما تلك الدراسة – على تواضعها – إلا خطوة، ينبغى أن تكون فى إثرها خطوات تترى، فى محاولة التوصل إلى خصائص أسلوب العربية فى النصف الأول من القرن العشرين.

وإنى لأناشد القائمين على المطبوعات والنشر بالعالم العربى، بسوريا مهاده الأول، وبلبنان موطن الحبيب والأهل، وبمصر قبلة الثقافة وعرين الإنصاف، أن يتعاونوا على نشر أدب الرافعى؛ ففى ذلك تهذيب للسلوك وتنمية للمواهب وعون للمبدعين.

إن تلك الدراسة، وقد ابتغت إنصاف الرافعى من حاسديه وخصومه، ليرجو صاحبها أن تكون خالصة لوجهه الكريم، خدمة للعربية ومقوماتها .. رحم الله الرافعى وجزاه عن العربية خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

***

obeikan.com